يعقوب عليه السلام

١ ـ تقدم يعقوب إلى أبيه إسحاق ـ وكان رجلاً شيخاً قد رق[١] جلْدُه، واعوَجَّت[٢] قَناته ـ وقال: يا أبتِ، إني أشكُو إليكَ عِيصو أخِي، واستعديك[٣] على توعُّده وتهديده؛ فإنه منذ رَمَقْتَنِي بعين رعايتك، ودعوت لي بالبركة، وتكَهَّنْت لي بنَسْلٍ طيّب، ومُلك موروثٍ، وعيش خافض[٤]، حسدني لهذه الدَّعوات التي أسبغتها عليّ، وَحَقِد عليّ لهذه الرجيَّة التي تمنيتَها لي، وأنْكَر العلامةَ التي توسَّمْتَها فيَّ، فراح يَنَالُني بقارِس كلامه، وَيَخزُني بوجيع تأتيبه، ويُخيفني بتهديده ووعيده، حتى يَبس ما بيني وبينه من ودّ، وتقَطَّع ما كان يجمعنا من رحِم.

ثم هو فوق ذلك يُفَاخِرُني بامرأتيه هاتين اللتين تزوّج بهما من كنعان، وَيُكَائرني بما يَرْتَقِبُه من أولاد يضيِّقُون عليّ الرزق، ويَزْحَمُونني بمناكبهم في الحياة، وقد شكَوْتُ إليك، لتحكم بيني وبينه، بما وَهبَك الله من رأيٍ حكيمٍ، وحِلْمٍ راجح.

قال إسحاق ـ وقد أهَمَّه ما رأى من القَطِيعَة بين الأخَوَيْن، والنّفرة بين الشقيقين ـ: يا بُنَيَّ، إنني ـ كان ترى من هذه اللمّة[٥] البيضاء، والجبين المتغضِّن[٦]، والظهر المتقوس ـ أصبحت شيخاً متهدماً، خذلتني قُوَّتي، ووقفت بي الأيام على ثنيَّة[٧] الوداع، وإنه يُوشك أن يُوَافيني الأجَل، ويقطع ما بيني وبين الحياة من أسباب، ولا آمنُ عليك

---

(١) رَقَّ عظمه: ضعف أو كبر وأسن.

(٢) أعوج: انحنى.

(٣) استعداه: استعانه واستنصره.

(٤) الخفض: الدَّعة وسعة العيش. وخفض العيش لان وسهل.

(٥) اللِّمَّة: شعر الرأس المجاوز شحمة الأذن.

(٦) غضنت الجبهة: ظهرت فيها التثنيات.

(٧) الثَّنيَّة: الطريق في الجبل.

بعدي أن يُعَالِنَكَ أخوك بالعداوة، ويحسرَ لك اللِّثَام عن بَطْشٍ وكَيدٍ، وهو في مَنَعَةٍ من شدة أسْرِه[١]، وقُوَّة خَلْقه، وفي حِرْز من أصهاره وذوي قُرْباه.

وما أرى إلا أن تُزْمع رَحِيلاً إلى فدّان آرام من أرض العراق، حيث خالك لابان بن بتويل، فابن على إحدى بناتِه؛ فإنك تنالُ العزّ والشرف والمجد والمنعة، ثم عُدْ بعدها إلى هذه الأرض، وإنني لأرجو لك عيشاً أخفض من عَيْشِ أخيك، ونَسْلاً طاهراً خيراً من نَسْلِه وولده. والله يَكلؤُك بعينه. ويحفظك برعايته.

٢ ـ كانت هذه الكلمات على قلب الفتى يعقوب أندى من نَقيع[٢] بارد على فؤاد مَحْرور[٣]، وجد فيها متنفساً لصدره، وروحاً لقلبه، ونزعت نَفْسُه إلى مَنْبِت الأهل وَبَلَدِ الآباء والأجداد، فاستودع أبويه بدموع سخينة، وشيَّعَاه[٤] بدعواتٍ طيبة كريمة، وخرج مخترقاً الصحراء. مُسْرِياً[٥] بالليل، وسائراً بالنهار، يرفعه نَجْد[٦] ويخفضه وهْد[٧]، ولقاءُ خاله نُصْب عينيه، وكلماتُ أبيه ملء سمعه وبصره، وعناية الله ترمُقُه وترعاه.

وكان كلما أتعبه السير وأضْنَاه بُعْدُ الشُّقَّة، تذكَّر الأمل الذي يرجوه، والخيرَ الذي يرتقِبُه، فيسهل الحَزْن وينقاد السير.

وطلع يوم تحرّقت سَمائمه[٨]، وهبَّت سَوَافِيه[٩]، ورمت الشمسُ الأرضَ بسهامها المُحْماة؛ فشقّ على يعقوب السير، وَبَعُدَتْ أمامه الشقة، وتلفَّتَ أمامه فإذا بصحراء ممتدة إلى حيث ينتهي البَصَر، ورمال ليس بها صُوًى[١٠] ولا مَعْلَم؛ فأدركه السَأم، وأحسَّ مَسّ

(١) الأسر: شدة الخلق.
(٢) النقيع: المحض من اللبن يبرد.
(٣) المحرور: المغيظ.
(٤) شيَّع فلاناً: خرج معه ليودعه ويبلغه منزله.
(٥) السُّرى: سير عامة الليل.
(٦) النَّجد: ما ارتفع من الأرض وصلب.
(٧) الوهد: الأرض المنخفضة.
(٨) سمائم جمع سموم: وهي الريح الحارة.
(٩) السَّاف من الريح: ما حملته من التراب والغبار.
(١٠) صُوى جمع صُوَّة: وهي ما غلظ وارتفع من الأرض أو هي ما نصب من الحجارة ليستدلَّ بها على الطريق.

اللّغَب[١] والنَّصَب[٢]، ووقف ساعة بين الإحجام والإقدام، أيُواصِلُ السير ويتغلبُ على الصَّعب، فيظفر بما عساه أن يُقَوِّي عضُده، ويشدّ أزْرَه، أم يُؤْثِر العافيةَ والدَّعَة على هذا السفر الشاق الطويل، وَيَقْنَع من الغنيمة بالإياب؟

وفيما هو يفكر ويدبّر لمح صخرةً تكْتنِفُ ظِلاًّ، فدلفَ إليها ليجلس ساعة يُريح فيها جسمه، وَيُبْرِد قَدَمَيْه، وما أسند ظهره إلى الصخرة حتى أدركته سِنَةٌ فنام، ورأى في نومه رُؤيا صالحة، أشرقتْ لها جوانبُ نفسه، وغرّدت بلابلُ آماله، ورأى أن الله سيؤتيه عَيْشاً رضيًّا، ويمنحه مُلْكاً وسيعاً، ويرزقه نسلاً طيباً مباركاً، يُورثهم الأرض ويعلمهم الكتاب.

فقام من نومه مشروحَ الصدر، مصقولَ الذّهن، مُطْلَقَ النفس من عِقَال السأم، وقد انفسحت أمامَه رقْعةُ الأمل، وشام مخايلَ الرَّجاء؛ إذ رأى تعزيزاً لنبُوءَة أبيه، وبشيراً بتحقيق أمانيه، وانطلق يَعْدُو كالسهم، مستأنفاً السير بِعَزْمٍ جديد.

٣ ـ وَطُوِيت الأرض، وقُضِيت أيام، وإذا هو مُشرفٌ على سَوَادٍ رآه؛ فعَقد به حَبْلَ الأمل، ووَصله بما في نفسه من رجاء، أن يكونَ هذا طليعةَ البلد، ومَوْطن الشيخِ لابان، وخفَّ إليه مسرعاً، فوجد أن ظنّه لم يخطىء، ورجاءه لم يَخِبْ.

ها هي ذي أقدامُه قد بدأت تَبْتَرِد، وقلبه قد ذهب عنه الصدأ والفُتُور، وها هي ذي نفسه قد عاودَها الجَمام[٣]، وتلك هي قُطْعَان الغنم، وأسراب الطير، وطلائع الشجر، بل هم أولئك رُعَاةٌ يغنُّون، وأطفال يَهْزِجون ويمزحون.

إذنْ هو قد فارق الصحراء، وإذنْ هو في أرض إبراهيم التي نبتت فيها رسالُته، وطلعت شريعتُه، وفي أرض خاله، غايتُه التي يرجوها، ورجِيَّتُهُ التي قطع المفاوز[٤] في سبيلها، فليسجد لله شُكْرَاناً لنعمته، واعترافاً بتوفيقه وهدايته.

٤ ـ تقدم يعقوبُ الغريبُ سائلاً مُتلطِّفاً: أفيكم مَنْ يَعْرِفُ لابان بن بتويل؟ قالوا: وَمَنْ مِنَّا لا يعرف لابان صِهْرَ إسحاق الرسول؟ إنه عَمِيدُ بيته، وشِهَاب قومه، وصاحبُ

(١) لغَّبَه السير: أتعبه.
(٢) نَصِبَ نَصَباً: أعيا وتعب.
(٣) الجَمام: الراحة.
(٤) المفازة جمع مفازة: وهي البرية القفر.

هذه القُطْعان التي تسيل بها هذه البِطاح[١]. قال: وهل فيكم من يَدلُّني على داره أو يرشدني إلى مكانه؟ قالوا: ها هي ذي بِنْته راحيل مُقبلة تَغدو وَراء الغنم. فتلفت يعقوب فإذا فتاةٌ قسيمة[٢] الوَجْه، كاملة الخَلْق، ذاتُ رَوْنَقٍ[٣] مُعْجِب، وحُسْنٍ بارع؛ فاضطرب فؤاده، وأحسَّ كأن حُبْسَةً[٤] تَعْقِلُ لسانه، ولكنه جمع نفسه، واستردَّ عَازِبَ حِلْمه وعقله، وتقدم إليها قائلاً: إنَّ بيني وبينك قرابةً وَشِيجة، وآصِرَة وثيقة؛ فإني من هذه الدَّوحة التي تُظِلك، وَمِنْ تلك النَّبْعَة التي تفرَّعت منها، أنا يعقوب بن إسحاق الرسول، وابن رفقة بنت جدّك بتويل، نزحتُ من أرض كنعان، وقطعت هذه الصحراء التي تَصْهَر الجِلْد، وتُدْمي القدمين، مُقْتَحِماً الصعابَ في سبيل أن ألقى لابان في أمرٍ جَلل.

فرَحَّبَتْ بلقياه في طَرْف غَضِيضٍ[٥]، وحديث كريم، وانطلقت معه إلى المنزل.

وفيها هو في الطريق أحَسَّ كأن اضطراباً بفؤاده، أو كأنَّ طائراً طار مِنْ قَلْبِه، أكان ذلك لرؤية هذه الفتاة التي قد تكونُ أملهُ الذي يرجوه، ونُبوءَته التي تنبَّأَهَا له أبوه، وتأويل رُؤْياه التي رآها في الصحراء؟ أم كان قد اعتراه ما يعتري الطارقَ الغريب مُقدماً على أمر عظيم؟ قد يكون لهذا وقد يكون لذاك، ولكنه على كل حال مَلَك نَفْسَه، وأمسك بقُوَّته، ومشى بخطوات مطمئنة، حتى التقى بخَالِه لابان، وما إنْ رآه حتى عانقه طويلاً، واغرورقت عيناه بالدموع فَرَحاً، ثم أحَلَّهُ مِنْ نفسه وأهله محلاً رفيعاً ومنزلة كريمة.

٥ ـ أفضى يعقوبُ إلى خاله بما أرسله أبوه، وما يرجوه من الإصهار إليه، وأنه قد رأى راحيل فحلَّتْ من قلبه منزلة رجا أن تكونَ له بعدها زَوْجاً، والسَّبَبَ الكريم الذي يربطُ بينه وبينه. فقال لابان: نعم ونعَام عَين[٦]! قد أجَبْتُك إلى سؤالك، وأعَنْتُك على مُبْتَغَى آمالك، ولكن على أنْ تُقِيمَ عندي سَبْعَ حِجَج[٧] تَرْعَى، لتكون لك

(١) البطاح جمع بطحاء: وهو المكان المتسع يمر به السيل فيترك فيه الرمل والحصى الصغار.
(٢) قسم الوجه: حَسُن، ويقال قَسُمَ الرجل فهو قسيم.
(٣) رونق الشباب: أوله وطراءته.
(٤) الحبسة: ثقل باللسان يمنع من الإبانة.
(٥) الغضيض الطرف: المسترخي الأجفان.
(٦) أي أفعله إكراماً لعينيك.
(٧) حِجج جمع حِجَّة: وهي السنة.

صداقاً فيما تريد، وأنت طوال هذا العهد يكنفُكَ مني جَنَاح، ويُظِلك قلبٌ عاطف رؤوم[١].

فقبِلَ يعقوبُ هذا الشرط، وأخذ يَرْعَى الغنم، والأيام تَدْهِن له بمعسول المنَى، وتُحْيِي في نَفسه بَوَارِقَ الآمال.

٦ ـ كانت راحيل صُغْرَى بنتين للابان، وكانت لَـيَّا تكبرها في السن، وإن كانت تَليها في اعتدال الخَلْق وحُسْن التقاسيم، ولم يكن في عَزْمِ الشيخ لابان، ولا في شريعهِ قومه أن يزوّج الصغرى قبل الكبرى، ولكنَّ نَفْسَه لم تستجب له أن يصدّ يعقوبَ عن راحيل، بعد أن امتلأت منها نفسه، وتعلّق بها أمله، فرأى مَخْرَجاً من هذه الحيرة أن يجمعَ بينهما لهذا الفتى؛ إذ هو لذلك كِفَاء وأهْل، والشريعةُ القائمةُ لم تكن تَأبى الجمعَ بين الأختين.

فلما قضى يعقوبُ الأجلَ، وحان أن يبني على عِرْسه[٢]، ويجمع شمله بأهله، طلب من لابان أن يُـنْجِز وَعْده، ويُوفي له بشرطه؛ فقال له: يا بني، إن قَـلْبَ الوالد وشريعة هذا البلد يَأبيان عليَّ أن أنكحك الصغرى قبل الكُبرى، فهذه لَـيَّا إن فَـضَلَتها راحيل بجمالها، فإنها تُدَانيها في كمال عقلها وحَزْمها؛ فَخُذْها بصداقك زوجاً كريمة، وإن شئتَ راحيل فامْضِ عندي سَبْعَ حجج أخرى، ترعى فيها الغنم أيضاً فيكون لك صَداقٌ آخر، أزُفُّ إليك به راحيل كريمة عزيزة.

وما كان ليعقوبَ وهو الرسولُ الكريم أن يردّ لخاله حاجة، أو يصده عن رغبة، وهو الذي أكرم وفادته، وغمره بإحسانه، وآثرَه بمصاهرته، فقبل ما اشترط ودخل بليَّا، حتى انقضت سَبْعُ حِجَـج أخرى تزوّج بعدها براحيل.

ووهب لابانُ لكل من بِنْـتَـيْه أَمَةً تقومُ بخدمتها ورعاية أمورها، ولكنهما آثرَتَا يعقوب بهاتين الأمَتين، تحبّباً فيه وَزُلْفَى إليه، ومن هاتين الأمَتين، ومن لَـيَّا وراحيل رُزِق يعقوب اثنى عشر ابناً هم الأسْباط.

---

(١) رئمت الأنثى ولدها فهي رؤم: أحبته وعطفت عليه.

(٢) العِرس: الزوج، يقال: هو عرسها وهي عرسه.